المسيحيون العرب
وتجديد الخطاب الديني

الأب مشير باسيل عون

1 ـ مسرى التفكير المسيحي اللاهوتي الناشط حالياً في أوطان الشرق العربي: ملاحظات مقتضبة

1 ـ 1 ـ من معاينة واقع النشاط الفكري اللاهوتي المسيحي في أوطان الشرق العربي، ولا سيما في لبنان، يستدلّ المرء على بضعة من مواضع الخلل والتقصير. ولقد أحصيتها في حقلين اثنين، حقل المعضلات الخارجية المتصلة بالأوضاع المحيطة والمؤثّرة، وحقل المعضلات الداخلية المرتبطة بطبيعة التفكير اللاهوتي المسيحي.

1 ـ 2 ـ قبل الخوض في سرد المعضلات الخارجية، ينبغي إلقاء البال إلى ظاهرة الإقبال المتنامي على دراسة اللاهوت المسيحي في الكليات الجامعية والمعاهد العليا ومراكز التنشئة والمدارس الراعوية. ومما يستدعي التيقّظ في استجلاء هذه الظاهرة أن مقارنة هذا الإقبال بما تشهده الجامعات الأوروبية من تقهقر في عدد طلاب اللاهوت تتيح شيئاً من النظر الناقد في استخلاص العِبَر. فبينما تقهقر دراسة اللاهوت في أوروبا يوازيه تقدّم في أعداد الدارسين للعلوم الإنسانية، وفي رأسها الفلسفة، يتصاحب الإقبال على دراسة اللاهوت في لبنان وتقهقر دراسة العلوم الإنسانية، ولا سيما الفلسفة.

1 ـ 3 ـ غير أن ازدياد أعداد الدارسين للعلوم اللاهوتية لا ينبئ حتى الآن برغبة صريحة في ممارسة هذه العلوم ممارسة التفرّغ الأكاديمي. وبصرف النظر عن قلة قليلة تكاد تحصى على أصابع اليد، يقلقني ألا تفضي دراسة

اللاهوت إلى بعض من المزاولة العلمية المتفرغة المتخصصة. ويعوزنا في لبنان، على سبيل المثال، تقصٍّ علمي للأسباب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تستجلي الكثير من مبررات الإكباب على دراسة اللاهوت في هذا القدر العظيم من الإقبال.

1 ـ 4 ـ ومن الأسباب التي تُثبّط المعنيين بعلم اللاهوت المسيحي عن الانصراف إلى هذا العلم انصراف التفرّغ والتخصص أن السمة الغالبة في التنشئة الإكليريكية الإلحاح على بلوغ الكهنوت، والإعراض عن تنشئة الفكر اللاهوتي بمعزل عن اعتناق الدعوة الكهنوتية. ولذلك يندر أن يبرز في الأوساط المسيحية الكاثوليكية لاهوتيون علمانيون لا يمارسون وظائف الخدمة الراعوية. ولشدّة ما تستقطب الإدارة الراعوية والمؤسساتية طاقات الكهنة الدارسين لعلوم اللاهوت، يؤثر البعض من هؤلاء العدول عن دعوتهم اللاهوتية العلمية، بينما يجتهد البعض الآخر في السعي إلى التوفيق بين الدعوتين. وفي جميع الأحوال، يقتصر التخصص اللاهوتي العالي على أهل الإكليروس من رجال ونساء، وينكفئ العلمانيون فيميلون عن العلوم اللاهوتية لأسباب شتى. ومن ثم، يفقد اللاهوت العربي المسيحي غنى الإسهام الفكري العلماني، وهو الإسهام الذي يصوغه العلمانيون في معترك التزاماتهم الوجودية اللصيقة بواقع المجتمعات العربية.

1 ـ 5 ـ وفي صدد التخصص اللاهوتي العالي لا بد من التحسّر على انعدام رؤى التخطيط التي تقضي بإنشاء المنتديات اللاهوتية الأكاديمية التي تُعنى بتعزيز البحث اللاهوتي، فتوفر للباحثين اللاهوتيين الرصينين أسباب الهناء المادي الخليق بمكانتهم العلمية. ومما يؤسف له في هذا النطاق انشغال أهل الربط والحل في المؤسسات الدينية بالإكثار من مراكز البحث الديني، والشغف الشديد بالعمران الخارجي، والتعزّي بحشد الجموع وبإنجاح المؤتمرات إنجاح التنظيم الخارجي. والحال أن من أسباب الخصوبة الفكرية اللاهوتية الخليقة بإغناء الوعي المسيحي تأهيل الباحثين وتجنيدهم للبحوث اللاهوتية العميقة، وضمان معيشتهم، وتزويد المكتبات اللاهوتية أحدث المراجع والدراسات اللاهوتية العالمية.

1 ـ 6 ـ وينتاب النشاط اللاهوتي في لبنان وأوطان الشرق العربي ميل خفي إلى تحقير التنظير الفكري في وجه العموم، والتنظير اللاهوتي في وجه الخصوص، وتسلط لأنماط من الروحانية الدينية تحتذر من مقتضيات البحث اللاهوتي العلمي، وانتشار لتيارات من التقوى الشعبية تؤثِر تطلُّب المعجزات الباهرة على فعالية التطهّر اللاهوتي الفكري. ووفاقاً لمثل هذه التوجهات، يُغرق الكثيرون من معلمي اللاهوت في شيء من التبسيطية في عرض المسائل اللاهوتية في حلقات التنشئة المختلفة، فيعكفون على ترويج مضامين المؤلفات الدينية التي تخاطب العاطفة الدينية الشعبية بفضل طابعها الأدبي الشيق، ويعرضون عن إسهامات المؤلفات اللاهوتية التي يعسر اكتناه مضامينها لعمق تحاليلها وبعد آفاقها وشدة تطلّبها.

1 ـ 7 ـ ويغلب على النشاط اللاهوتي المسيحي استناد شبه كامل إلى الترجمة والاقتباس، وإعراض متعمد عن البناء النظري الذاتي والابتكار المعرفي الخاص. وفي نطاق الترجمة والاقتباس يفضّل البعض الانصراف إلى الأدبيات الجانبية المنبثقة من المصادر الأولى، فيتجنّبون أمّهات الكتب اللاهوتية التي تحمل في مطاويها مادة الفكر اللاهوتي الغربي الحديث والمعاصر. وباستناد عدد ضئيل من الكتب اللاهوتية المعرّبة، فإن أغلب الترجمات تجري في حقول المواد الروحية والتعليمية والتاريخية والآبائية والليترجية، فيما مصادر اللاهوت النظري العقائدي والأخلاقي يظل الاطلاع عليها مقتصراً على المتمكنين من اللغات الأجنبية. وأما المفاهيم والمقولات الجديدة التي تستخرجها هذه المعارف النظرية في قرائنها الغربية، فيعسر تداولها ومناقشتها لامتناع أصحاب الاختصاص اللاهوتي عن الاشتغال بها وتطويعها وإدخالها في دائرة التعبير اللاهوتي العربي.

1 ـ 8 ـ ومن المعضلات الخارجية التي تصيب الفكر العربي المسيحي اللاهوتي القطيعة المعرفية التي انتشرت بين المسيحيين من أهل الفكر اللاهوتي والمسيحيين من أهل الفكر الإنساني من علماء الفلسفة واللغة والاجتماع والنفس والتاريخ والسياسة. ولقد اقتصرتُ على ذكر هذه الحقول المعرفية لما لها من صلة وثيقة بعلم اللاهوت. وليس المقصود من الحديث

عن القطيعة التحريض على خلط هذه العلوم بعضها ببعض، بل السعي بخلاف ذلك إلى إظهار مواطن التأثر والتأثير، وكشف الحجاب عن مواضع التواطؤ المفسدة لكل علم من هذه العلوم، والاستدلال على طاقات التعاون الضروري. ومما لا ريب فيه أن الفكر العربي المسيحي اللاهوتي يعوزه اليوم أن يتنادى إلى الإسهام في تكوينه وتعزيزه أصحاب الاختصاص في حقول ثلاثة شديدة الترابط في سياق قرائن المجتمعات العربية، عنيت بها حقول اللاهوت والفلسفة واللغة. ولا يغيب عن بال أحد ما للفلسفة العربية المعاصرة وما للغة العربية المتطورة من أثر بيِّن في إسعاف اللاهوت المسيحي على التعبير عن مضامينه. ويقيني أن في هذا الثالوث اللاهوتي الفلسفي اللغوي نواة الأساس في قيام الفكر العربي المسيحي اللاهوتي، بشرط ألا تُقصى من هذه النواة التأسيسية إسهامات العلوم الإنسانية الأخرى.

1 ـ 9 ـ وأما مشاكل اللاهوت الداخلية في لبنان وأوطان الشرق العربي، فمعظمها يتصل بطبيعة الذهنية اللاهوتية السائدة في الكثير من المؤسسات الكنسية والأوساط اللاهوتية الجامعية والتجمعات الراعوية. وإن أرقَّ ما يمكن أن تُنعت به هذه الذهنية اللاهوتية عجزها المخيف عن استخدام النقد التاريخي لتطهير ما تراكم في قاع مكتسباتها المعرفية من عتيق التصورات وقديم المقولات وعقيم الأحكام وبلي الآراء. ومن مظاهر هذا الخوف الذي يُربك الفكر أيما إرباك أن يعتقد البعض بأسطورة الثبات المطلق في التعابير الثقافية التي اتشحت بها مضامين العقيدة اللاهوتية، وأن يتغافلوا عن التمييز الفطن بين الجواهر والأعراض في استنطاق البشرى الإنجيلية الأصلية. وليس بالعجب، والحال هذه، أن تسترهب القيمين على شؤون الدين في المجتمعات العربية جميع الإبداعات الفكرية اللاهوتية التي تستتبع إعادة النظر الموضوعية وتستتلي مراجعة الفكر الصريحة وتقتضي النقد الذاتي الصارم.

1 ـ 10 ـ ومن مشاكل اللاهوت الداخلية أيضاً قلة الوثوق بالاختبار الإيماني الفردي والجماعي كموضع سَني من مواضع التفكير اللاهوتي. وغالباً ما تلجأ الكنائس المسيحية في الشرق العربي إلى رص الفكر اللاهوتي ورصفه في أنظومة عقائدية كيانية (ontologie de la croyance) بحيث يستحيل على

المفكر اللاهوتي ربط الأنظومة بعصارة الاختبار الإيماني. فينشأ في وعي المؤمنين ضرب من الانفصام المعرفي بين ما يُلقى على مسامعهم من مواعظ وتعاليم وإرشادات وتوجيهات وما يستبطنونه في اختباراتهم الإيمانية الوجودية من أصيل المعاني الملزمة. ومما ينجم عن هذا الانفصام تعارض حاد في الوقع يضطر المؤمنين في حسهم الإيماني (sensus fidelium) إلى مواجهة العصمة العقائدية المتشبثة بأهداب الوديعة الإيمانية.

1 ـ 11 ـ ومن المشاكل الخطيرة التي تُلم بعلم اللاهوت أن يظن الكثيرون من أهل الشرق أن الفكر اللاهوتي بات ترفاً لا طائل تحته في ظل التعسر السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولقد فات هؤلاء المشككين أن أصل كل إصلاح النظر المستقيم في هوية الفكر الذي يهيمن على خلفيات المسلك الفردي والجماعي. فإذا انطمس هذا الفكر أو التبست معالمه على أهل الفكر عينهم، سار المجتمع كله في سبيل الانحراف والاضياع وفقد صلته الكيانية بأعماق الجوهر الإنساني. وليس يخفى على أحد أن تخدّر الوعي الشعبي في تحسس المنفعة اللاهوتية ناشئ من حمل هذه المنفعة اللاهوتية على معاني الفاعلية المنظورة في نطاق المنفعة الإدارية التقنية. والحال أن منفعة الفكر اللاهوتي في استخراج معاني الوجود القصية أشدُّ أثراً في تغيير القلوب والذهنيات والبنى من منفعة الأثر التقني.

1 ـ 12 ـ ومما يصيب الفكر اللاهوتي المسيحي في لبنان وأوطان الشرق العربي أن الدين في المجتمعات العربية مقترن اقتراناً وثيقاً بالسياسة، إذ إن جميع هذه المجتمعات بُنيت، في خلاف ما يقال، على أساس التمييز الطائفي، فلم تختبر بعد أصول الحكم العقلاني الشامل لجميع حقول الحياة الفردية والجماعية. ولشدة هيمنة الدين على السياسة في هذه المجتمعات، اضطر الفكر اللاهوتي المسيحي، على وجه من المفارقة المربكة، اضطر إلى الانزواء في عليته اللاهوية التجريدية خوفاً من إثارة التشنج الديني الذي يؤججه نهج الطائفية السياسية. ووجه المفارقة في هذا الانزواء أن الفكر اللاهوتي دعوته ألا يرهب فينكفئ ويعتصم بالصمت حين تجابهه معضلات التدبير السياسي لشؤون المدينة الأرضية، لأن السياسة في مفهومها اللاهوتي

المسيحي التزام في سبيل الحق والخير والصلاح والعدل والسلام. واللاهوت الحق هو اللاهوت الذي يعنى بتدبر سبل التحرر الفردي والجماعي من قيود الانكماش الروحي وعقد الانغلاق الإنساني ومظالم التخلف الاجتماعي وسلاسل الاستغلال الاقتصادي وعبوديات القهر السياسي. ومن الواضح أن الفكر اللاهوتي الناشط في لبنان وأوطان الشرق العربي لا يجرؤ حتى على التنديد النظري بهذه المفاسد، في حين أن فضحها والنضال من أجل استئصالها والسعي إلى تحديد الإنسان منها هي من أشد المهمات التصاقاً بدعوة هذا الفكر اللاهوتي. ولا عجب، ومن ثم، أن ينقلب مثل هذا اللاهوت فكر التروي المفرط والمهادنة الصابرة والمعاناة الصامتة. وهذا كله قد يفضي إلى التعزّي فالعزوف فالاستقالة. وبسبب من سيطرة عقدة الأقلية على الوعي العربي المسيحي ترسخ تصور الأخطار المحدقة بديمومة الحضور المسيحي في الشرق العربي، فشلّت طاقات الاستنهاض والتغيير التي ينطوي عليها فكر التحرّر الإنجيلي، وهو عماد الأصالة اللاهوتية.

1 ـ 13 ـ ومن المآزق التي تُرهق الفكر اللاهوتي هذه الهوة المستحكمة التي تفصل عصور الشهادة المسيحية اللاهوتية في الشرق العربي بعضها عن بعض، وتزجّ الأجيال المتعاقبة بعضها في غربة عن البعض الآخر. فمن تأمّل مسرى الإنتاج اللاهوتي الشرقي العربي منذ التنصّر الأول هالته تلك الفجوات المعرفية التي تغيب في لجّتها معالم التواصل والتتابع والتلاحق والتساوق والتناغم والتلاقح والتخاصب. ومع أن بعضاً من الجهد يبذل هنا وثمة من أجل استخراج المضامين الأساسية والمحاور العظمى التي دارت حولها نشاطات الفكر اللاهوتي في كل حقبة من حقب الفكر العربي المسيحي القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة، ـ وهذا عمل لم ينجز بعد ـ، فإن الربط بين هذه الحقب واستجلاء الثوابت المعرفية وصياغة الخلاصات واجب لاهوتي ينبغي التشمير له اغتناءً بأقوال الماضي وإثراء لخطاب الحاضر وإخصاباً لفكر المستقبل. وحده هذا السعي يُعفي الفكر اللاهوتي من حتمية الاكتفاء باعتماد أنماط التحديث اللاهوتي الغربي، فيسعفه في محاورة الفكر العربي في شقيه العلماني والإسلامي.

2 ـ إسهام فكري عربي مسيحي معاصر في تحديث الفكر العربي: مثال الأب فريد جبر

2 ـ 1 ـ وقبل استعراض البعض من الشروط النظرية الضرورية لإنشاء مثل هذا الخطاب المسيحي اللاهوتي، يجدر الاطلاع على المحاولة الفذّة التي قام بها الأب فريد جبر، وهو واحد من أعظم علماء المسيحية المعاصرين وقوفاً على دقائق الفكر العربي. وعلى الرغم من أن الهم الأكاديمي الذي كان يستوطن عقل الأب جبر ما كان، على وجه التخصص العلمي، الفكر المسيحي اللاهوتي الصرف، فإن التزامه الإيماني كمثقف لبناني عربي أملى عليه بعضاً من الاعتناء اللاهوتي. فأتت محاولته في تحديث الفلسفة العربية تُعرب عن رغبة صادقة في الإسهام الفعلي في تحديث اللاهوت العربي المسيحي.

2 ـ 2 ـ ينتقد الأب جبر كل من يلجأ إلى «عوارف أجنبية الأصل والمبنى، يحاول ضبطها في صوغ عربي يتوخى منه التوفيق أو التلفيق بين تلك العوارف وجو الفكر العربي بأصوله ومبانيه»[1]. ولذلك يعتبر أن العلوم الإسلامية هي «المحل الفكري الذي تبدّت فيه الذهنية السامية خالصة صافية»[2]. وجرياً على نمط هذه الذهنية، يقول الأب جبر إن فلسفتنا هي «صياغة من القول تترجم عن بنية في الذهن نازلة في العقل صورة للحقيقة التي يدّعي العرفان الأصيل بأنه ينطوي عليها. فتروق كل إنسان أيّاً كان عصره ومصره لأنه إما أن يتبيّن نفسه فيها وإما أن تهز أعطاف هذه النفس لتنبّهه إلى

(1) فريد جبر، في حوار أجرته معه مجلة آفاق عربية، السنة الثانية عشرة، بغداد، نيسان 1987، ص 66، وورد نصه في مقالة جيرار جهامي، «فريد جبر: فكر ومنهج»، مجموعة مقالات وأبحاث تكريماً للأستاذ والمفكر اللبناني فريد جبر، تحقيق وإعداد جيرار جهامي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، 20، بيروت 1989، ص 5.

(2) فريد جبر، «نحو تحقيق فلسفي لبناني»، مجلة حوليات، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد الأول، بيروت 1981، ص 72.

أمور كان غافلاً عنها فعاد ليكتشفها جديدة عليه. وما ألذ الجديد لمن يكتشفه»[(1)].

2 ـ 3 ـ وإذا ما شاء المفكر العربي أن يتأمل في واقع الفكر العربي، وجب عليه «أن يقصر همَّه على تتبع القوى الحكمية السارية في بواطن شعب ما أو مجموعة من الشعوب ليتبين وجوه اتجاهاتها بحيث تتلاقى. فيركّز انتباهه على ملتقياتها لينطلق منها في تحليلاته. على أن يجري هذه الأخيرة بروح الوضعية التامة التي تتأتّى على كل حكم تقديري من شأنه أن يغشي عليها النظر»[(2)]. وبناءً على هذه القاعدة في استقراء الواقع الفكري، يحلّل جبر فكر النهضة العربي فيعتبر أنه فكر يتنازعه اتجاهان: «انطلق أولهما من الدين والعقيدة يُلصق بهما عوارف أجنبية الأصل والصيغة ويدعيها منهما، فاستحال الصهر والجمع بين الطرفين واستمر الأمر، بوعي أو دون وعي، على هذه الحال حتى حلت ظروف أرغمت على الفصل بينهما متناكرين متنافرين. أما الاتجاه الثاني، فإنه انطلق من الأصول الأوروبية العلمانية، فاتخذها عوارف فلسفية وحاول أن يجد لها صوغاً وبناء عربيين كادا يجيئان في الواقع منهما بمنزلة ريش الطاووس من أبي الحن، أو العكس بالعكس، في الأسطورة المعروفة المشهورة. فلا غرو أن استحال على كل من الاتجاهين أن ينتهي بتحقيق فلسفي صحيح»[(3)].

(1) فريد جبر، «نحو تحقيق فلسفي لبناني»، مجلة حوليات، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد الأول، بيروت 1981، ص 78.

(2) أنـظـر: Farid Jabre, «Les sens de l'abstraction chez Avicenne», Mélanges de l'Université Saint-Joseph, t. L, 1984, p. 307.

(3) فريد جبر، في حوار أجرته معه مجلة آفاق عربية، السنة الثانية عشرة، بغداد، نيسان 1987، ص 66، وورد نصّه في مقالة جيرار جهامي، «فريد جبر: فكر ومنهج»، مجموعة مقالات وأبحاث تكريماً للأستاذ والمفكر اللبناني فريد جبر، تحقيق وإعداد جيرار جهامي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، 20، بيروت 1989، ص 5. في نظر الأب جبر يرتبط مقياس تقدّمنا أو تخلّفنا بـ «قدرة حقيقتنا على أن تتكيّف مع حكم التطور، إذ يقتضي بتجديد بنيانها أو الاحتفاظ به أم عجزها عن هذا التكيف ولوازمه» (فريد جبر، «التعبيرية والتكاملية»، مجلة الفكر العربي، حزيران 1986، العدد 42، ص 24).

2 ـ 4 ـ وفي إثر تقصيات شتى لطبيعة الفكر العربي، يرسم الأب جبر أن مبدأ إنشاء الخطاب الفكري هو الجمع بين الذهنيات المرتبطة بعالم الأعيان واللسانيات أو اللغويات التي تؤطّر ذهنيات الوجدان وتعبّر عنها. والبناء الفكري الناجح هو البناء الذي يقوم على أساس إنشاء العلاقة الصحيحة بين الذهنيات واللغويات. والذهنيات مرآة انطباع العينيات في الوجدان الفردي والجماعي. وعوضاً من التعبير عن الحقيقة الإيمانية المسيحية في كلام لاهوتي منقول عن السليقة الفكرية الغربية ومقيّد بتعريب المصطلحات الموضوعة أصلاً باللغة الأجنبية، ينبغي إذن لعلم اللاهوت العربي، احتذاءً بمقارنة الأب جبر، أن يبنى على الربط بين الاختبار الإيماني الوجودي (وهو انطباع العينيات في الوجدان) وطرق التعبير عن هذا الاختبار (وهي اللسانيات أو اللغويات). وبما أن الخطاب اللاهوتي ينبغي له أن يبنى في روح الأمانة لخصوصية التربة الذهنية التي تنغرس فيها ثقافة الجماعة المنشئة لهذا الخطاب، فإن الوقوف على هذه الخصوصية العربية يتيح لنا استطلاع هوية مثل هذا الخطاب.

2 ـ 5 ـ ورأس الكلام في هذا الموضوع أن طبيعة السعي الفكري الذي تجنّد له الأب فريد جبر تقتضي اعتماد الأصالة في معاناة الفكر العربي وربط الوجدانيات باللغويات واستخراج صياغات عربية بحتة تعبّر عما ينزل في الوعي الفكري العربي العام منزلة الأصل والقطب والصدارة. ولا جرم أن ما يجري اعتماده في حقل التفكر الفلسفي يمكن تطبيقه في حقل التفكّر اللاهوتي، لما للحقلين من تشابه وتقارب وتواصل. ولذلك كان القران بين الوجدانيات واللسانيات هو الركن الأساسي في قيام العمارة اللاهوتية العربية المسيحية الحديثة، وكان النظر في مضامين الوجدانيات والنظر في بنى اللسانيات هو السبيل الأضمن في إتقان مثل هذا القِران.

3 ـ ضمة من الشروط النظرية الضرورية لإنشاء الخطاب العربي المسيحي اللاهوتي

3 ـ 1 ـ في مستهل الحديث عن هذه الشروط النظرية، ينبغي البلوغ

إلى شيء من الإجماع على تعيين هوية علم اللاهوت المسيحي. ومما لا شك فيه أن تحديد هوية الخطاب اللاهوتي هي وجه من وجوه الكلام اللاهوتي. ومعنى ذلك أن رسم الهوية اللاهوتية للخطاب الإنساني هو في حد ذاته كلام لاهوتي. وعلاوة على هذا، فإن تحديد هوية اللاهوت يقترن اقتراناً وثيقاً بالحقل الوجودي الذي يزمع اللاهوت أن ينشئ قول الحق فيه. ولذلك كانت هوية اللاهوت في أوطان الشرق العربي في غير ما هي عليه هذه الهوية في أقطار أخرى، مما يظهر أن ليس من علم في اللاهوت واحد تعتمده على سبيل الإرغام كنائس المسكونة كافة[1].

3 ـ 2 ـ وطالما أن تحديد علم اللاهوت هو من الشروط الأساسية لإنشاء مثل هذا الخطاب اللاهوتي العربي، فإن أول الإسهامات اللاهوتية أن يُعمد إلى استجلاء عناصر الخصوصية في علم اللاهوت. وموجز الأقوال المعقولة في هذه القضية أن علم اللاهوت ليس هو بناء كلامي في ذات الله

(1) في صدد هذا التنوّع اللاهوتي قال المجمع الفاتيكاني الثاني قولاً عظيم الشأن: «وإن ما قيل من قبل في شرعية التنوّع في العبادة والنظام يجب تطبيقه أيضاً في التعبير اللاهوتي عن العقيدة. فالواقع أن من دقّق النظر في الحقيقة الموحى بها وجد أن المناهج والوسائل لمعرفة الأشياء الإلهية والتعبير عنها ليست واحدة في الشرق وفي الغرب. ومن ثم فليس بالعجب أن بعض نواحي السر الموحى به قد أدركها الواحد وعبّر عنها أفضل من الآخر، بحيث يجب في الغالب اعتبار هذه الصيغ اللاهوتية المتنوعة متكاملة أكثر منها متعارضة». (المجمع الفاتيكاني الثاني، قرار في الحركة المسكونية، منشورات المكتبة البوليسية، جونية 1992، فقرة 17). وفي هذا السياق، يعتبر الأب سمير خليل سمير أن الفكر العربي المسيحي اللاهوتي ينبغي له أن يواجه ضربين من الغيرية، الغيرية الإسلامية والغيرية الغربية: «وجب على المجتمع المسيحي في الشرق أن يجابه بلا انقطاع، لإنقاذ هويته، «غيريات» متنوّعة، علماً بأن أشدّها اختلافاً هي العالم الإسلامي بكل ما يجسّده، ووجهه الثقافي، أي الثقافة العربية. وفي الفترة الزمنية الأقرب إلينا (من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين)، كانت الغيرية الأقرب إلى المطلق هي الغرب. وفي أيامنا، يتوحّد هذان «الغيريان» لتحدّي كنائسنا المسيحية الشرقية». (الأب سمير خليل سمير اليسوعي، لاهوت الشرق الأدنى الحديث في الصلة بين الهوية والغيرية، المشرق، 75، 2001، ص 51).

وجوهر الله وطبيعة الله، وليس هو بناء كلامي في ذات الإنسان وجوهر الإنسان وطبيعة الإنسان. في البناء الأول استحالة مطلقة لأن الكيان الإلهي ممتنع الإدراك، وفي البناء الثاني حشو عديم الفائدة لأن العلوم الإنسانية هي التي تُعنى بمثل هذا البناء. ولذلك من الأنسب القول بأن اللاهوت كلام بشري في اختبار الإنسان الإيماني. وفي هذا الاختبار الإيماني تلتقي مبادرة الكشف الإلهي سعي الإنسان إلى المعنى المطلق. فليس من مهمة اللاهوت إذن البلوغ إلى كيان الله (وفي هذا مأزق المقاربة اللاهوتية الأنطولوجية)، بل استجلاء آثار حضوره الحي وتجسّده في وقائع الإنسان اليومية، وهو حضور لا توضع اليد عليه، بل يظل يفاجئ الوعي البشري بجدّته وتحدّيه واستنفاره لطاقات العقل والروح. وإن الإعراض عن المقاربة اللاهوتية الأنطولوجية يقابله في الفكر العربي إعراض عن الأيسيات[1]، وهو الإعراض الذي أشار إليه الأب جبر في معرض حديثه عن خصوصية الفكر العربي وإمكانات تجديده[2].

3 ـ 3 ـ فإذا كان اللاهوت تعبيراً عن الحراك الناشط بين القطب الإلهي والقطب الإنساني، فإن المقولات التي يستخدمها هذا العلم ينبغي حتماً استخراجها من معين العلوم الإنسانية، والفلسفة منتصبة في مقدمة هذه العلوم. ولذلك أمكن القول بأن اللاهوت استخدام لمقولات الفكر الإنساني المحلي

(1) استخدم الفيلسوف العربي الكندي مفرد أيس للدلالة على الوجود والكينونة، أو الموجود والكائن. ويقابل الأيس عبارة ليس، ومعناها اللاوجود أو العدم. ولذلك قيل في الله إنه المؤيِّس الكل عن ليس، أي الموجد الكل عن عدم.

(2) وفي هذا السياق، يقول الأب فريد جبر إن مصطلحنا العربي هو «أشد صلاحية بأصوله وتكوينه للتأليف في مجال القدريات منه في مجال الأيسيات (الأنطولوجيا)، بحيث إن أقبلنا على وضع تحقيق فلسفي في المجال الأول رأينا المصطلحات يتداعى بعضها بعضاً...». (فريد جبر، في حوار أجرته معه مجلة آفاق عربية، السنة الثانية عشرة، بغداد، نيسان 1987، ص 66، وورد نصه في مقالة سميح دغيم، «المعتزلة فكر ومصطلح»، مجموعة مقالات وأبحاث تكريماً للأستاذ والمفكر اللبناني فريد جبر، تحقيق وإعداد جيرار جهامي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، 20، بيروت، 1989، ص 16).

تعبيراً عن الاختبار الإيماني الذي تحياه الجماعة المؤمنة في قرائن انتمائها المحلي، ووصفاً للعلاقة الناشطة بين قطبي الحركة الإيمانية، ألا وهما الله والإنسان، وفاقاً لما يتحسّسه الإنسان من وحي إلهي ولما يحياه من تفاعل تاريخي مع معطيات هذا الوحي.

3 ـ 4 ـ واستناداً إلى هذه المقاربة، يستوي الشرطان الأساسيان في نشوء الخطاب اللاهوتي العربي المسيحي سؤالاً عن هوية الاختبار الإيماني المسيحي في أوطان الشرق العربي، وسؤالاً عن الصيغ والبنى والمقولات التي يستخدمها الفكر العربي الناشط في هذه الأوطان عينها. وإذا كان الفكر العربي المحلي هو الذي يزوّد اللاهوت العربي المسيحي تقنية المصطلح وأسلوب التعبير، ويرسم له إطار التفكير ونظام التحليل والاستنتاج، وجب الاستفسار عن هوية الفلسفة العربية التي ستود في الزمن الحاضر والتي يمكن الفكر العربي المسيحي اللاهوتي الاستناد إليها في بناء عمارته اللاهوتية النظرية[1]. وأما السؤال عن الاختبار الإيماني المسيحي الذي تحياه الجماعات المسيحية في الأوطان العربية، فإنه يقتضي أولاً التحرّي عن ارتباط هذا الاختبار بالمعضلات الوجودية الحياتية التي يعانيها الإنسان العربي المسلم والمسيحي. ويقتضي هذا السؤال ثانياً التحري عن معاني التمييز بين اختبار وجودي حياتي

(1) تعوّد الفكر العربي المسيحي اللاهوتي الحديث والمعاصر الائتمام بأنماط التحديث اللاهوتي الغربية. والحال أنه ينبغي له أن يستلهم أنماط التحديث الفكري العربية الإسلامية لأنه فكر يحيا في صميم الوجود العربي وينتمي إليه انتماء كيانياً. وفي صدد هذا الانثقاف، أي الانخراط الكياني في صميم الثقافة المحلية، يقول المجمع الفاتيكاني: «ولكي يستطيعوا (المسيحيون) أن يؤدوا شهادة المسيح هذه تأدية مثمرة، يجب أن ينضموا إلى هؤلاء البشر بالتقدير والمحبة، مدركين أنهم أعضاء في مجموعة البشر التي يعيشون فيها، وأن يسهموا في الحياة الثقافية والاجتماعية بما في الحياة البشرية من شتى أنواع التعامل والتداول، وعليهم أن يألفوا تقاليد القوم الوطنية والدينية، وأن يكتشفوا بغبطة واحترم بذور الكلمة المستترة فيها، وعليهم أن يتنبّهوا في الوقت نفسه للانقلاب العميق الذي يجري بين الأمم...» (المجمع الفاتيكاني الثاني، قرار في نشاط الكنيسة الإرسالي، منشورات المكتبة البوليسية، جونية 1992، فقرة 11).

يعيش فيه العربي المسلم واختبار وجودي حياتي يعيش فيه العربي المسيحي. ويقتضي مثل هذا السؤال ثالثاً التحرّي عن مدلولات الاختلاف بين اختبار إيماني ينمو فيه العربي المسلم واختبار إيماني ينمو فيه العربي المسيحي.

3 ـ 5 ـ ولبّ المقصود في هذا كله أن هناك ضربين من القضايا التي يعالجها علم اللاهوت: في الضمة الأولى المعضلات الحياتية التي يعانيها الإنسان العربي المسيحي بصفة انتمائه إلى الواقع العربي، وهي المعضلات التي يعانيها أيضاً شريكاه في المصير الواحد الإنسان العربي المسلم والإنسان العربي غير المؤمن؛ وفي الضمة الثانية، المعضلات الإيمانية التي يُبتلى بها الإنسان العربي المسيحي بصفة انتمائه إلى فكر الإنجيل، وبصفة انتمائه إلى ما أنتجه هذا الفكر من حضارة متشرّبة من روح المسيح، وبصفة انتمائه إلى الجماعة المسيحية في تاريخية وجودها ومسراها وبنية تعبيرها الجماعي وتنظيمها الداخلي. ومما لا شك فيه أن الخطاب اللاهوتي المسيحي ينبغي له أن يُظهر كيف يتسنّى للخلفية الإيمانية الفردية والجماعية، سواء أكانت مسيحية أم مسلمة، أن تؤثر تأثيراً ما في صياغة الموقف الوجودي الذي يقفه الإنسان العربي المسيحي والمسلم من المعضلات الحياتية المشتركة.

3 ـ 6 ـ وفي هذا السياق يجدر الحديث عن البعدين الأساسيين اللذين ينطوي عليهما علم اللاهوت، عنيت بهما البعد الوجودي المنبثق من المعاناة اليومية للإنسان المؤمن، والبعد النظري الذي يجمع شتيت الاختبارات الوجودية الإيمانية ويدخلها في نسق من التفكير التجريدي المترابط في أجزائه، المتداعي في قضاياه، المتنامي في طاقاته. وعلى الرغم من الإقرار بأن علم اللاهوت المسيحي العربي ينمو في بعده الوجودي نمو الشهادة الإيمانية التي بمقتضاها يحيا المسيحيون في أوطان الشرق العربي، فإن علم اللاهوت المسيحي العربي يعاني في بعده النظري ركوداً وقصوراً وتقهقراً. ولذلك ينبغي الاستفسار عن الأسباب الحقيقية التي ما فتئت تمنع هؤلاء المسيحيين من الإمساك بعصارة اختباراتهم الوجودية الإيمانية وإدراك معانيها والنظر فيها نظر التدبر اللاهوتي المبني على التحليل والتأليف والاستنتاج والمفضي إلى تجديد الصياغة الفكرية.

3 ـ 7 ـ ومن شروط علم اللاهوت العربي المقبل أن يحمل في مطاويه بذار الارتداد والتطهر والتغيير والتجديد والتحرير. ولما كانت مهمة اللاهوت أن يخدم الإيمان في استثمار طاقاته الدفينة، لا أن يخدم خطاب المؤسسة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، فإن هذه الخدمة ينبغي للمسيحيين أن يحملوها اليوم على معنى إنشاء الوساطة النقدية بين الإيمان المسيحي كما ينقله إلينا تقليد الجماعة الكنسية واختبار المؤمنين في الزمن الحاضر. وفحوى هذه الوساطة أن تربط بين مقتضيات الإيمان وتقليد الجماعة ربط التأويل والتكييف والابتكار. وإذا كان علم اللاهوت هذا تأويلاً للوديعة الإيمانية تضطلع به الجماعة المؤمنة بحسب قرائن انتمائها التاريخي، فإن مهمة الفكر اللاهوتي المقبل في أوطان الشرق العربي ينبغي ألا تنقلب استماتة في الحفاظ على ما التصق بالإيمان المسيحي من قالب التعبير الثقافي، بل يجب على هذا الفكر اللاهوتي أن ينقذ الإيمان من وطأة هذا القالب ليُعين الجماعة المؤمنة على الاهتداء بما يمليه عليها إيمانها من معاني الالتزام في صميم الوجود العربي. وموجز القول أن اللاهوت العربي المسيحي دعوته أن يخدم الممارسة الإنجيلية في المجتمعات العربية، أي أن يبني الفعل الإيماني المسيحي على قاعدة الوضوح في معاينة مقتضيات الإيمان ومعضلات الواقع والجرأة في تحرير الإنسان العربي.

4 ـ معالم شتى من هوية اللاهوت العربي المسيحي المقبل

4 ـ 1 ـ مراعاة لهذه الشروط النظرية، وبناء على استجلاء القرائن الثقافية التي تكتنف الوجود المسيحي في أوطان العالم العربي، يمكن الاستدلال على هوية اللاهوت العربي المسيحي الذي يمكن إنشاؤه وصياغته وإذاعته. ومما لا ريب فيه أن هذه الهوية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعضلات الأساسية التي تنتاب الإنسان العربي المسيحي في مسرى انخراطه الوجودي في مجتمعه العربي. ولقد أجمع معظم المحللين على أن ثمة ثلاث معضلات

خطيرة تجبه الوعي المسيحي في المجتمعات العربية وتتجلّى، على كثير من الترابط، في ثلاثة حقول، هي حقل الدين (وعنوان القضية لقاء المسيحية والإسلام والنضال في سبيل تعزيز التعددية الدينية)، وحقل الثقافة (وعنوان القضية الشهادة للحرية الإنسانية وتوطيد أسباب العيش الكريم). وفي امتداد كل حقل من هذه الحقول، ينشأ لاهوت ينعقد فعله على هداية الفكر في تدبّر هذه القضايا الثلاث، فإذا باللاهوت العربي المسيحي المقبل لاهوت في لقاء المسيحية والإسلام، ولاهوت في العروبة، ولاهوت في الحرية.

4 ـ 2 ـ وليس يعني الاقتصار على هذه الحقول الثلاثة أن يعدل الفكر اللاهوتي المسيحي عن معالجة قضايا أخرى تتصل بالاختبار الإيماني. جلّ ما في الأمر أن هذه الحقول ينبغي أن تستوعب جميع القضايا اللاهوتية حتى يصبح لهذا المسعى اللاهوتي العربي المثلّث الأضلاع الوقع الضابط والأثر النافذ والفعل الحاسم. فيكون اللاهوت العربي المسيحي في تحسّسه للحوار الديني وللعروبة الثقافية وللحرية الإنسانية هو عماد التفكير الديني المسيحي في استطلاع جميع وجوه الالتزام الإيماني المسيحي الفردي والجماعي في مجتمعات الشرق العربي.

4 ـ 3 ـ في الوجه الأول من وجوه اللاهوت العربي المسيحي، وهو وجه اللاهوت الحواري المسيحي الإسلامي، أقترح، في اقتضاب شديد، استثمار لاهوت الكلمة الإلهي. ومعنى هذا الاستثمار الفكري أن يعمد المسيحيون اللاهوتيون إلى التوفيق الفطن بين إيمان الإسلام بنزول الكلمة في القرآن وإيمان المسيحية بنزول الكلمة في شخص يسوع المسيح. وقد يقتضي منهم هذا التوفيق الجرأة على تجديد المقولات اللاهوتية المسيحية المتعلقة بالأبوة والولادة والبنوة. وفي نطاق هذا المسعى اللاهوتي التوفيقي، يجدر التذكير بأن حمل التجسّد المسيحي على معنى تجلّي كلام الله لا يُفقر العقيدة المسيحية أو ينزع عنها خصوصيتها، بل يضعها في موازاة الانسجام مع عقيدة التنزيل القرآني. ومن طبيعة هذا المسعى أن يجتهد هؤلاء اللاهوتيون المسيحيون في تعزيز المبدأ القائل بتنوّع التدبير الخلاصي الذي يشمل في

وجوه شتى جميع أبناء الأرض. وفي مثل هذا القول اللاهوتي إعراض عن التشبث بالفوقية المسيحية من وجه، وإقرار بخصوصية اعتلان الكلمة الإلهي في شخص المسيح من وجه آخر. ومبتغى هذا المسعى ألا ينقلب الإقرار بالخصوصية المسيحية إصراراً على ادعاء الاستعلاء والهيمنة.

4 ـ 4 ـ وهذا ما تنطوي عليه روحية التعددية الدينية التي تتيح للإنسان المؤمن أن يجمع في ذاتيته اللاهوتية الاعتراف الصريح بالآخر وبغيرية الآخر والتمسّك بالخصوصية والفرادة والتمايز. وفي ذلك ضمان السلام اللاهوتي مع شركاء المصير في الشرق العربي الواحد. ومن غير هذا الجهد اللاهوتي التكييفي للاهوت الكلمة، يظل الوعي الإسلامي على نفوره اللاهوتي من اللباس الثقافي الذي تتشبث به العقيدة المسيحية في حديثها عن الأبوة الإلهية والبنوة الإلهية، ويظل هذا النفور سبباً في التجافي والتحاذر والتخاصم. وليس من حرج أن تُحمل الأبوة الإلهية على معنى اقتران كلام الوحي الكتابي بالمصدر الإلهي. فكما يقترن كلام القرآن بمنشئه الإلهي، كذلك يقترن كلام المسيح بمنشئه الإلهي. ولقد حاول العرب المسيحيون في القرون الوسطى، على ما يذهب إليه في كثير من الدراية الأب سمير خليل سمير[1]، حاولوا أن يستخدموا من المقولات اللاهوتية المتداولة في الفضاء الفكري المسيحي ما لا يخدش الأذن العربية الإسلامية، ولكن من غير أن يتخلّوا عن جوهر خصوصيتهم اللاهوتية، فقالوا في أبوّة الله صفة الله الجواد، وقالوا في أمومة الله صفة الرحيم المشتقة من رحم المرأة، وقالوا في الثالوث صفة الغيرية المطلقة، على ما نحته يحيى بن عدي، ونظروا إلى التجسّد نظرتهم إلى خلق جديد يفيض برحمة الله، ونظروا إلى الفداء نظرتهم إلى اكتمال التجسد. وذهب البعض من هؤلاء اللاهوتيين العرب، ومنهم يحيى بن عدي، إلى القول بأن العقل البشري لا يقوى على اكتناه معنى الأبوة ومعنى اتحاد الكلام الإلهي المتجلي في يسوع المسيح بالمصدر الإلهي الممتنع الإدراك. وفي

(1) الأب سمير خليل سمير اليسوعي، «لاهوت الشرق الأدنى الحديث في الصلة بين الهوية والغيرية»، المشرق، 75، 2001، ص‌ص 25 ـ 55.

صدد هذا الامتناع يقول يحيى بن عدي: «إن علماء النصارى وأهل التقى منهم يعتقدون أن كيفية اتحاد الابن الأزلي بالإنسان ليس يعرفها البشر على كنهها، وإنما يشبهها من يشبّهها بما ذكروه على التقريب لا على التحقيق والاستقصاء»[1]. فإذا كان الكلام اللاهوتي الذي ينحته المسيحيون في مبحث المسيح هو على وجه التقريب، فلِمَ لا يجرؤون اليوم، وشهادتهم ناشبة في تربة التجسّد العربية، فيربطون المسيح الكلمة بالله كما يربط المسلمون القرآن الكلمة بالله؟

4 ـ 5 ـ وفي الوجه الثاني من وجوه اللاهوت العربي المسيحي، وهو وجه لاهوت العروبة، أقترح، في كثير من الإيجاز، استثمار لاهوت التجسّد وقد حُمل على معنى الانغراس في أرض الشهادة الشرقية السامية. وإن مثل هذا الاستثمار الفكري يقتضي من اللاهوتيين تأهيل التربة الثقافية المشتركة بين المسيحية والإسلام، وهي تربة النشأة المسيحية في أرض الشرق العربي. فإذا كانت الذهنية السامية هي منبت الفكر العربي، فإن المسيحية والإسلام ينتميان على وجه المماثلة إلى هذه الذهنية. فالمسيحية، في صفاء نشأتها، سامية، شرقية، عربية[2]، ولو أن العقل العربي المسيحي اللاهوتي ظل على شيء من الانزواء حتى زمن لقاء الإسلام. ولذلك ينبغي للاهوت العروبة أن يعنى بتأهيل العقل العربي المسيحي اللاهوتي تأهيلاً به تتحقّق الشهادة المسيحية الأصيلة في أرض الشرق العربية.

---

(1) أورد النص عبد المجيد الشرقي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، تونس، 1986، ص 358.

(2) وهذا ما يدفع بالكثيرين من أهل النخوة الفكرية إلى المطالبة بإنشاء معجم ضخم للاهوت العربي المسيحي يمكنه أن يتضمن أبواباً ثلاثة، عنيتُ بها الأعلام والأعمال والمعالم، تُجمع فيه المعلومات الوافية عن اللاهوتيين العرب المسيحيين رجالاً ونساء، وعن المؤلفات الكبرى ومحتوياتها الرئيسية ومكان وجود مخطوطها وزمان نشره أو مكان طبعه وتحقيقه، وعن المعالم التي قد يُستدل بها، في تجانس اللفظ مع عبارتي الأعلام والأعمال، على المفاهيم والمقولات والمصطلحات والأوضاع اللاهوتية العربية المنحوتة، الأصيلة منها والدخيلة.

4 ـ 6 ـ فحوى القول أن لاهوت العروبة هو اللاهوت الذي ينتشل المسيحية العربية من مرقدها وينفخ فيها نسمة الحياة والإبداع. وعلى غرار الإسلام العربي، تصبّ في هذه المسيحية العربية إسهامات الثقافات السريانية واليونانية والقبطية واللاتينية. والقول بلاهوت العروبة لا يستدعي البتة بتر هذه الأبعاد الثقافية من جسم المسيحية العربية. وإذا كان بعض المسيحيات الشرقية المنغرسة في الأرض العربية قد بطُلت عروبتها في الأزمنة الحديثة، فلأن معظم مفكريها ألصقوا بها مضامين الاقتباس الثقافي من غير أن تكون لهم القدرة على تعريبها واستساغتها وهضمها حتى انقلب الاقتباس تغرّباً وتشويهاً، فيما كان الاقتباس في قرون الخصوبة الحوارية المسيحية الإسلامية تمثلاً حقيقياً للمفاهيم الدخيلة وإبداعاً عربياً فريداً للتصورات التي تنشئها مثل هذه المفاهيم في الوعي العربي المسيحي.

4 ـ 7 ـ وخلاصة القول في لاهوت العروبة أنه لاهوت ينبغي للمسيحيين، أمانةً لإرثهم العربي المسيحي، أن يستحدثوه ليسهموا به في تحرير الثقافة العربية جمعاء من مخاطر الانغلاق والتقوقع والانعزال عن حركة الفكر العالمي والتقابس الحضاري، ومن مخاطر الإعراض عن الإسهام الفعلي في رسم صورة الإنسانية في الألف الثالث. وهو لاهوت يسعى إلى استخراج أفضل المعاني الإنسانية التي يتوسل بها الفكر العربي الحاضر للتعبير عن كرامة وجود الإنسان العربي والتي ينبغي أن تحمل في تضاعيفها القدر عينه من الأمانة لروح التراث العربي الإسلامي المسيحي، ومن الانفتاح على إسهامات الفكر العالمي التي استخرجت من تراثات معظم الأمم والشعوب، فأجمعت أغلب الحضارات على تحديد الكثير من معاني الكرامة والحرية والحقوق والواجبات والالتزام والقيم والمثل التي تنطوي عليها هذه الإسهامات.

4 ـ 8 ـ وأما الوجه الثالث والأخير من وجوه اللاهوت العربي المسيحي، وهو وجه لاهوت الحرية، فأرى أنه مقترن اقتراناً وثيقاً بلاهوت العروبة لأنه يذود عن معاني الحرية التي اشتملت عليها الثقافة العربية حين تهيأ لها أن تنشط في قدر من التمثّل والإبداع قل نظيره. فلاهوت الحرية هو الذي يعيد صياغة المعنى الجوهري في الانتماء إلى المجتمعات العربية انتماء

يحرر الإنسان العربي في مختلف الأوطان من سطوة الاستبداد الذي يتجلّى في مختلف أشكال القهر الفكري والسياسي والديني والاجتماعي. ولذلك اتصف لاهوت الحرية هذا بسمة اللاهوت السياسي لأنه فكر ناقد يتبصّر في الواقع السياسي السائد في الأوطان العربية، وهو الواقع الذي تحتشد فيه جميع أسباب التخلف والظلم والقهر. ويتعيّن على لاهوت الحرية أن يكشف النقاب عن الخلفيات الدينية والثقافية التي يستند إليها الأداء السياسي في تدبير شؤون المجتمعات العربية، فيتأوّل مضامينها تأوّلاً يستخرج منه ما يبرّر به ديمومة هذا الواقع.

4 ـ 9 ـ ولكي يغدو لاهوت الحرية النضال الاجتماعي الرامي إلى تعزيز حقوق الإنسان وإعلاء الكرامة الإنسانية فوق جميع الاعتبارات، ينبغي له أن يستنطق طاقات الصلاح والإصلاح التي ينطوي عليها الإرث الديني المسيحي الإسلامي المشترك. ولهذا السبب بعينه يقترن لاهوت الحرية بلاهوت اللقاء المسيحي الإسلامي وبلاهوت العروبة. فالذود عن إنسانية الإنسان في مجتمعات الأوطان العربية هو المصهر الثقافي الذي تلتقي فيه وجوه اللاهوت العربي المسيحي الثلاثة. وفي ترميم هذه الإنسانية العربية تتجلى مواضع انكشاف التدبير الإلهي، إذ إن اليقين المسيحي يملي على المؤمنين أن مقاصد المبادرة الإلهية بلوغ الإنسان كمال الدعوة الإنسانية. فليس إذن من التزام ديني عربي مسيحي إسلامي يسوّغ للإنسان العربي أن يُعرض عن نضال التحرر الذي ينوي لاهوت الحرية أن يؤسسه تأسيس البناء النظري والممارسة التاريخية.

4 ـ 10 ـ وليس يعسر البتة على لاهوت الحرية هذا أن يعثر في تضاعيف النصوص الدينية المسيحية والإسلامية وفي مطاوي الثقافة العربية وفي ثنايا الأدبيات العربية وفي مخزون الممارسة التاريخية العربية المسيحية والإسلامية على ما يسعفه في صياغة فكر لاهوتي عربي تحرري به يجيبه محن المجتمعات العربية وشدائدها، وبه يفضح تباطؤ الفكر الديني العربي في انتهاج مسلك النقد الذاتي، وهو المسلك الذي يبلغ به إلى الاضطلاع اضطلاعاً أميناً بمسؤوليته في الهداية والإرشاد والتنوير.

خلاصة

لا يجوز للفكر العربي المسيحي اللاهوتي المعاصر أن يتعجّز، أي أن يدّعي العجز في مواكبة حركة الواقع والفكر في لبنان وسائر مجتمعات الأوطان العربية. واليقين أن ليس من مستند ديني يبرّر أن يكتفي الإنسان المؤمن بالعيش دون الاكتراث للفكر، إذ ليس من حياة لاهوتية تزهد عمداً في نظر العقل وتبصّر الذهن وتأمّل الروح. فتجديد الفكر اللاهوتي في مبادئ الألف الثالث المطلّ على المسيحية العربية هو الذي سينقذها من محنة الأفول، لأن نسمة الفكر الأصيل هي التي تُحيي العظام وتنعش الوجود.